

الباب الثامن

في كلامه في الحقائق والمقامات وكشفه فيها عن الأمور المعضلات

قال رضى الله عنه: الشوق على قسمين: شوق على الغيبة لا يسكن إلا بقاء الحبيب وهو شوق النفوس.

وشوق الأرواح على الحضور والمعاناة.

فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل فذاك مقام التعريف إيماناً حقيقياً وذاك ميدان تنزل أسرار الأزل.

وإذا أنزلك إلى محل المثابة والجهاد فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل، وهو الإسلام الحقيقى، وذلك ميدان تجلّى حقائق الأبدية.

والمحقق من لا يبالي بأى صفة يكون؛ لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم للسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود، والأسرار منزلة عن الوجودية للصديقية، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لأبى جحيفة:

يا أبا جحيفة، سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء فالعلم يدلك بالعلم من الأسماء ونهايته الجنة، والحكيم المقرب يملك باليقين وبالحقائق من الصفات ونهايته منازل القربة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ونهايته إلى الله.

وتجتمع المراتب الثلاثة فى الكبير فجمال قوما بالعلم وقوما بالحقائق وقوما بالأسرار وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل وهم البصراء.

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾.

أى على معاناة، يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها وهى النيابة، وأما هو فقد انفرد بحالة لا تعرف لعظيم قربه.

وكان ينشد رضى الله عنه:

وغنى لى منى قلبى فغنيت كما غنى
وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

وقال رضى الله عنه:

أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية. والله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية. فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه لها ووقفه للقيام بها. ومن كان وقته المعصية فسبيله الاستغفار والتوبة. ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله. ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رض النفس عن الشهوات، والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهم، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهم القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر.

والصبر ثبات القلب بين يدي الرب، قال رسول الله ﷺ: «من أعطى فشكر، وابتلى فصبر؛ وظلم فغفر؛ وظلم فاستغفر». ثم سكت فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟ قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»^(٤). أى لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا. وقال رضى الله عنه: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله؛ قال الله سبحانه:

﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾^(٥). ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه فسار يطوى مهامه^(٦) نفسه ويبدأ^(٧) طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾^(٨). ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾^(٩).

فالأول حال السالكين.

والثاني حال المجذوبين.

فمن كان مبلوؤه المعاملة فنهايته المواصلة.

(٤) رواه ابن مردويه.

(٥) الشورى: ١٣.

(٦) مهامه جمع مهمه وهو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.

(٧) اللبداء: الصحراء الواسعة سميت بذلك لأنها تبديد من يحلها.

(٨) العنكبوت: ٦٩.

(٩) آل عمران: ٧٤.

ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة.
ولا تظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله له، فسلكها مسرعاً إلى الله عجلاً.

وكثيراً ما تسمع عند مراجعات المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له.

وليس الأمر كما زعموا فإن المجذوب طويت الطريق له، ولم تطو عنه، ومن طويت له الطريق لم تفتنه ولم تغب عنه، وإنما فاتته متاعها وطول أمدّها، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا.

وقال رضى الله عنه: العارف لا دنيا له لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه.
وقال رضى الله عنه: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا.
وقال رضى الله عنه: الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة فإنه عند الله.

فإن قلت: ما معنى الغربة في كلام الشيخ هنا وما معناها في الحديث الوارد: «بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»؟^(١٠)

فاعلم أن الغربة المذكورة في الحديث معناها قلة من يعين على القيام بالحق، فيكون القائم به غريباً لفقدان المساعد وعدم المعاضد، فلا ينهض القائم حينئذ إلا قوة إيمانه، ووفور إيقانه، فلذلك قال ﷺ:

«بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء».

يريد ﷺ أنهم قاموا بأمر الله في بلاده وعباده حيث تقاعدت هم الناس عن القيام به.
وأما الغربة في كلام الشيخ رضى الله عنه فمعناها أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة، فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريباً في الدنيا إذ ليست وطناً لقلبه عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فيها عاين من ثوابها ونوالها، وفيها شاهد من عقوبتها ونكالها، فاستغرب في هذه الدار.
وأما العارف فإنه غريب في الآخرة فإنه كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيها هنالك فصار غريباً في الآخرة لأن سره مع الله بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم إليها يأورون وفيها يسكنون، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا في ذلك كله بأداب الله وأداب رسله وأنبياؤه متأديين، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين.

وقال رضى الله عنه:

(١٠) رواه مسلم وابن ماجه والترمذى والطبرانى بنحوه.

الخوف على قسمين: خوف العامة، وخوف الخاصة.

فخوف العامة على أجسادهم من النار.

وخوف الخاصة على خلعهم التي كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلع الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة، وعلموا أن الله تعالى قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع في المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم فكان خوفهم إشفاقاً على نفوسهم من عقوبة الله. وأما أهل الخصوصية فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به ما كساهم من خلع منته فعملوا على صيانتها ليقدموا عليها بها لم تدنس ولم تتغير طاهرة نقية، مشرقة بهية؛ وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرْ﴾ (١١).

فطهروا ملابس إيمانهم وإيقانهم من دنس غفلتهم وعصيانهم، وفهموا أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (١٢). فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملابس المتن خشية أن تدنس بأوساخها كي يقدموا عليه بخلعه التي أنعم بها عليهم، ونهضوا له بالوفاء فيما اقتضى منهم، وبالأمانة والصيانة فيما استأمنهم. وكان بعض العارفين ينشد:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابس	فقلت خلع ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباي تحتهما	قلب يرى ألفة الأعياد والجمعا
العيد لي ماتم إن غبت يا أملي	والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب بها	يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

وقال رضى الله عنه:

العامة إذا خوفوا خافوا، وإذا رجوا رجوا.

والخاصة متى خوفوا رجوا، ومتى رجوا خافوا.

ومعنى كلام الشيخ أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر، فإذا خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله.

وأهل الله إذا خافوا رجوا: عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن يقط من رحمته، ولا أن يبيس من منته، فاحتالوا على أوصاف كرمه، علما منهم أنه ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه، وليردهم بذلك إليه.

وإذا رجوا خافوا، يخافون غيب مشيئته التي هي من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختباراً لعقولهم، هل نقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن في مشيئته؛ فذلك

(١١) المذتر: ٤.

(١٢) الأعراف: ٢٦.

استثار الرجاء خوفهم، وحكمهم في القبض والبسط كما قال الشيخ في الخوف والرجاء غير أن البسط مزلة إقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم.

قال بعضهم: فتح لي باب من البسط فانبسطت، فحجبت عن مقامي ثلاثين سنة. وكان الشيخ رضى الله عنه ينشد:

واقطع السير إليه السير إليه زميلاً (١٣) فإذا ما نلت منه وصولاً
فاقرع الباب قليلاً قليلاً.

غيره:

واحذر البسط ونادى بالحبيب من على بعد تُنادَى من قريب
فقوله: واحذر البسط لما قدمناه، فإن من رزق من الأنوار البسط فإنه يخشى على العبد أن يبيغيه وجوده، قال الله سبحانه:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ (١٤).

والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد، إذ هو في أسر قبضة الله وإحاطة الحق محيطه به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه؟ والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو الأليق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف وإيهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى (١٥). وأخبرني بعض الصوفية قال: رأى شيخنا شيخه في المنام بعد موته مقبوضاً، فقال له: يا أستاذ مالك مقبوضاً؟ فقال له: يا بني القبض والبسط مقامات من لم يوفهما في الدنيا وفي بهما في الآخرة. وكان هذا الشيخ الغالب عليه في حياته البسط.

وقوله: ونادى بالحبيب من على بعد، أى من شهود استحقاق الإجابة أو من على بعد من دعواك لأوصاف الربوبية، أو من على بعد لوجود شهود الإساءة. وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: ما طلبت من الله حاجة إلا وقدمت إساءة أمامى. فإن قلت: فحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار فقالوا:

(١٣) من زميل يزميل: عدا وأسرع معتمداً في أحد شقيه رافعاً جنبه الآخر.

(١٤) الشورى: ٢٧.

(١٥) قال القشيري في «الرسالة القشيرية» عن القبض والبسط.

وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف: بمنزلة الرجاء للمستأنف.

ومن الفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء: أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل: إما أن يخاف فوت محبوب؛ أو هجوم محذور - وكذلك الرجاء: إما أن يكون بتأميل محبوب في المستقبل، أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكروه في المستقبل، وأما القبض: فلمعنى حاصل في الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالتيه بأجله، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه في عاجله.

ثم قال: وقد عد أهل التحقيق حالتي القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه، لأنها بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلال العبد واندراجيه في الحقيقة: فقر وضرا.

ليذكر كل واحد منكم أرجى عمل عمله لله، فذكر أحدهم برّه بوالديه، والآخر عفاه عن ابنة عمه مع حبّه إياها والتمكن منها، وذكر الآخر تسميره لأجرة أجبر استأجره فلما وجده دفع ذلك كله إليه، فكشف الله عنهم ما نزل بهم وزالت الصخرة عن قم الغار فخرجوا، هذا معنى الحديث مختصراً رواه مسلم في صحيحه^(١٦):

فاعلم أن هؤلاء الثلاثة لم يذكروا طاعاتهم إلا وقد شهدوها فضلاً من الله عليهم فتوسّلوا بنعمة إلى نعمة كما أخبر الله عن زكرياء.

﴿ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً﴾.

فتوسّل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه.

وسألت امرأة بعض الملوك فقالت: إنك قد أحسنت إلينا عام أوّل ونحن محتاجون لإحسانك إلينا هذا العام. فقال: أهلاً بن توسّل لإحساننا بإحساننا وأعطائها وأجزل لها العطاء.

ومن فتح له هذا الباب جاز له الإخبار بطاعته ووجود معاملته؛ لأنه حينئذٍ متحدّث بنعم الله سبحانه.

وقد كان بعض السلف يصيح فيقول: صَلَّيتُ البارحة كذا ركعةً، تلوت البارحة كذا كذا سورةً، فيقال له: أما تخشى من الرياء؟ فيقول: وبحكم وهل رأيتم من يرأى بفعل غيره؟ وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لم لا تكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١٧). وأنتم تقولون: لا نتحدّث.

وقال رضى الله عنه: كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيبقى بعد أن كان، ومَنْ كلا طرفيه عدم فهو عدم.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق؛ لأن الوجود المطلق إنما هو لله، وله الأحديّة فيه، وإنما للعوالم الوجود من حيث ما أثبت لها.

واعلم أن مَنْ الوجود له من غيره فالعدم وصفه في نفسه، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: الصوفي من يرى الخلق في طي سرّه كالهباء في الهواء لا موجودين ولا معدومين حسبها هم في علم رب العالمين.

وقال أيضاً رضى الله عنه - وقد تقدم: وإنّا لا نرى أحداً من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئاً.

وفي كتاب الحكم^(١٨) من كلامنا: العوالم ثابتة بإثباته محوّة لأحدية ذاته.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله اه: كان لى صاحب كثيراً ما يأتينى بالتوحيد فقلت له: إن

(١٦) ورواه البخارى في صحيحه.

(١٧) الضحى: ١١.

(١٨) كتاب «الحكم» من أشهر كتب ابن عطاء الله السكندرى وهو - كما يدل سياق العبارة - أسبق في التأليف من

«لطائف المنن» الذى هو موضوع التحقيق.

أردت التي لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجودًا، والجمع في باطنك مشهودًا. وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظل، لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا أثبت ظليته الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر؛ إذ الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضًا من شهد ظليته الآثار لم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا يعوق السفن عن التسيار، ومن ههنا يتبين لك أيضًا أن الحجاب ليس أمرًا وجوديًا بينك وبين الله، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب إليك من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا موجود معه، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه، وذلك كرجل بات في مكان وأراد البروز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير أسد فمنعه ذلك عن البروز، فلما أصبح لم يجد هناك أسدًا وإنما هو الريح انضغط في تلك الكوة فما حجبه وجود أسد، وإنما حجبه توهم الأسد.

وسمعه يقول: لو عذب الله الخلائق أجمع لم ينلك من عذابهم من شيء، ولو نعمهم أجمع لم ينلك من نعيمهم شيء، فكانك في الوجود وحدك ثم أنشد:

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصخ إلى يلح لك البرهان
وسمعه يقول: دخلت على الشيخ أبي الحسن وفي نفسه أن آكل الخشن وألبس الخشن.
فقال لي الشيخ: يا أبا العباس أعرف الله وكن كيف شئت.

ودخل على الشيخ أبي الحسن فقير وعليه لباس من شعر، فما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه، وقال:

ياسيدي ما عبداً الله بمثل هذا اللباس الذي عليك.

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال:

ولا عبداً الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، ولباسي يقول: أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فأعطوني.

وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضى الله عنها وطريقة أصحابها الإعراض عن لبس زئى ينادى على سر اللباس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء. ومن لبس الزئى فقد ادعى.

ولا تفهم رحمك الله أنا نعيب بهذا القول على من لبس زئى الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء، فلا حرج على اللابس، ولا على غير اللابس، إذ كانا من المحسنين.

﴿وما على المحسنين من سبيل﴾ (١١).

وأما لبس اللباس اللين وأكل الطعام الشهى وشرب الماء البارد فليس القصد إليه بالذى يوجب

العتب من الله إذا كان معه الشكر لله.

وقد قال الشيخ أبو الحسن: يابني برّد الماء فإنك إذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله تقوها بكَزَاة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله.

والأصل في هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام.

﴿فَسَقَىٰ لَهَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٠).

ألا ترى كيف تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة؟ وسمعتة يقول: اختلف الناس في اشتقاق الصوفي؛ فعنهم من قال: إنه منسوب إلى الصوف لأنه لباس الصالحين.

وقيل: هو منسوب إلى الصفة، يعني صفة مسجد رسول الله ﷺ التي ينسب إليها أهل الصفة وهو نسب على غير قياس.

ثم قال: وأحسن ما قيل فيه: إنه منسوب لفعل الله به، أي صافاه الله فصوفي؛ فسَمِيَ صوفياً، ثم أنشد رضى الله عنه:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا وكلهم قال قولاً غير معروف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حتى سَمِيَ الصوفي
وسمعتة يقول: الصوفي مركب من حروف أربعة: الصاد والواو والفاء والياء.
فالصاد صبره وصدقه وصفاءه.

والواو وجده وودّه ووفاءه.

والفاء فقدّه وفقره وفناؤه.

والياء ياء النسبة.

إذا تكمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه.

وسئل رضى الله عنه عن قول عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل بحق أقول لكم: لا يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين.

فقال رضى الله عنه: أنا والله ممن ولد مرتين، الإيلاد الأول: إيلاد الطبيعة، والإيلاد الثاني: إيلاد الروح في ساء المعارف.

وسمعتة رضى الله عنه يقول: ولن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته.

ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى

الله، أى انقطاع أدب لا انقطاع ملل، يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه، فيلقى القياد إليه ويترك نفسه سلفاً بين يديه فلا يختار مع مولاه شيئاً لعلمه بما فى الاختيار مع الله من الآفات. ولنا فى هذا المعنى من قصيدة ذكرناها فى كتاب التنوير.

وكن عبده وألق القياد لحكمه وإياك تدييراً فما هو نافع
أتحكم تدييراً وغيرك حاكم أنت لأحكام الإله تنازع
فمحو إرادات وكل مشيئة هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع
كذلك سار الأولون فأدركوا على إثرهم فليمش من هو تابع
وقال رضى الله عنه:

اعلم أن الله خلق هذا آدمى وقسمه على ثلاثة أجزاء:
فلسانه جزء.

وجوارحه جزء.

وقلبه جزء.

وجعل على كل جزء حفيظاً فقال سبحانه وتعالى:
﴿ما يلفظ من قولٍ إلاَّ لديه رقيبٌ عتيد﴾ (٢١).

وقال سبحانه:

﴿ولا تعملون من عملٍ إلاَّ كنَّا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه﴾ (٢٢).

وتولَّى حفظ القلب بنفسه فقال عز وجل:

﴿واعلموا أنَّ الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾ (٢٣).

وسلَّط على الجوارح الشيطان.

واقضى من كل جزء وفاء ما ألزم به.

فوفاء القلب أن لا يشتغل بهم دنيا ولا بمر ولا حسد.

(٢١) ق: ١٨.

(٢٢) يونس: ٦١.

(٢٣) البقرة: ٢٣٥.

المراد بالتدبير المنهى عنه: هو اعتقاد الإنسان أن له دخلاً فى النتيجة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿الله عاقبة الأمور﴾ والإنسان المؤمن يحكم الأمر إحكاً تاماً كما كان يفعل رسول الله ﷺ فى جميع أموره: فى الدعوة، وفى الغزوات، وفى العمل على الانتصار والفوز، إنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحكم أمر ذلك إحكاً تاماً، لا يدع صغيرة ولا كبيرة للمصادفة أو للحظ ثم هو صلوات الله وسلامه عليه يدع أمر النتيجة لله سبحانه وتعالى ويرضى بها، ثم ينطلق منها مباشرة: - فوراً كانت أو غيره - إلى ما تستلزمه من عمل يترتب عليها. يبدأ صلوات الله وسلامه عليه فى إحكامه وفى تصيف أوضاعه بحسب الحكمة الدقيقة ثم يترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى وهكذا، وأئمة الصوفية جميعاً، ومنهم أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وابن عطاء الله السكندرى - رضى الله عنهم جميعاً - جزاهم عن الخير أحسن الجزاء - يسرون على هذا النسق لأنهم يتخذون رسول الله ﷺ أسوة حسنة استجابة لقوله تعالى:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

ورواء اللسان أن لا يعتاب ولا يكذب ولا يتحدث فيما لا يعنيه.
ووفاء الجوارح أن لا يسارع بها إلى معصية ولا يؤذى أحداً من المسلمين.
فمن وقع من قلبه فهو منافق.
ومن وقع من لسانه فهو كافر.
ومن وقع من جوارحه فهو عاص.

وقال رضى الله عنه: صلاح العبد في ثلاثة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا،
فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.
وقال رضى الله عنه: قال لى شيخى: لا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال: الجود من
القلّة، والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضا بالقضية.

وقال رضى الله عنه: من اشترى زيتاً من بيعاء فلما فرغ قال له زدنى فزاده خيطاً فدينه أرق من
ذلك الخيط، ومن اشترى فحماً فلما فرغ قال له زدنى فزاده فحمة فقلبه أسود من تلك الفحمة.
وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام قوم غلبت حسناتهم سيئاتهم فهم في الجنة قطعاً،
وقوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا يدخلون النار قطعاً، وقوم غلبت سيئاتهم حسناتهم فلا يخلدون
في النار قطعاً.

وقال رضى الله عنه: الدخول في الجنة بالإيمان، والخلود فيها بالنية، والدرجات فيها بالأعمال،
والدخول في النار بالشرك والخلود فيها بالنية والدركات فيها بالأعمال.

وقال رضى الله عنه: لا يدخل على الله إلا من باين؛ إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت
الطبيعى، وإما من باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة.

وقال رضى الله عنه: الكائنات على أربعة أقسام: جسم كثيف، وجسم لطيف، وروح شفاف،
وسرّ غريب.

فالجسم الكثيف بمجرد جاده.

والجسم اللطيف بمجرد جان.

والروح الشفاف بمجرد ملك.

والسر الغريب هو المعنى المسجود له.

فالآدمى بظاهر صورته جاده، وبوجود نفسه وتحيلها وتشكلها جان، وبوجود روحه ملك، وأعطى
زائداً على ذلك السر الغريب؛ فلذلك استحق أن يكون خليفة.

وقال رضى الله عنه: ليس العجب من تاه في نصف ميل أربعين سنة، إنما العجب من تاه في
مقدار شبر الستين والسبعين سنة، وهى البطن.

وقال رضى الله عنه: الأدنى يشرف على الأعلى ولا يحيط به والأعلى يحيط بالأدنى.
فالأولياء لهم الإشراف على مقامات الأنبياء وما لهم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات
الأولياء.

وقال رضى الله عنه فى قول بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً: أى لو كشف الغطاء للنفس لم أزد يقيناً فيها طالعه القلب.

وقال رضى الله عنه:

جميع أسماء الله إذا أسقطت منها حرفاً ذهبت دلالاته على الله كالعليم والقادر والرحيم وغير ذلك من أسمائه الحسنى إلا اسمه «الله» فإنك إذا أسقطت الألف بقى الله، فإذا سقطت اللام الأولى بقى له، فإذا أسقطت اللام الثانية بقى هو وهو النهاية فى الإشارة، وأنشد ابن منصور الحلاج:

أحرف أربع بها هام قلبى وتلاشت بها همومى وفكرى
ألف ألف الخلائق بالصنـع ثم على الملامة تجرى
ثم لأم زيادة فى المعالى ثم هاء أهيم أتدرى

وقال رضى الله عنه: كشف لى عن أرواح الصديقين صاعدة نحو الملاء الأعلى فإذا قائل يقول لى: يا على:

وما جنت خيلى ولكن تذكرت مرابطها من بر يعص وميصرا
أى أنها ما فرّت جنباً من الخلق ولكنها تذكرت أوطان التعرف.

وقال رضى الله عنه: الوحى إلقاء معنى فى خفاء.

وقال رضى الله عنه: جميع أسماء الله للخلق إلا اسمه الله فإنه للتعلى.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أنك إذا ناديت يا حلیم خاطبك من اسمه الحلیم أنا الحلیم فكن عبداً حلیمًا، وإذا ناديت باسمه الكريم خاطبك من اسمه الكريم أنا الكريم فكن عبداً كريماً، وكذلك سائر أسمائه إلا اسمه «الله» فإنه للتعلى فحسب؛ مضمونه الأولوية، والألوهية لا يتخلق بها أصلاً.

وقال رضى الله عنه: السماء عندنا كالسقف، والأرض كالبيت، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت.

وقال رضى الله عنه: نحن فى الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا، وسنكون فى الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا.

وسمعه يقول: الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه: المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصرّ عليها بعد فعلها، والفاجر ليس كذلك.

وقال رضى الله عنه لبعض أصحابه:

ليكن ذكرك الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمره، فبساطه العلم وثمرته النور.

ثم النور ليس مقصوداً لنفسه وإنما ليقع به الكشف والعيان.

وجاءه رجل فقال له: يا سيدى، هذا فتى.

فقال له الشيخ: أنت فتى؟ قال: نعم.

فقال له الشيخ: تدري ما الفتوة؟ ليست الفتوة الماء والملح، وإنما الفتوة الإيمان والهداية: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٢٤).

والفتى كما قال الله سبحانه عن إبراهيم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٢٥).

فسمي فتى لأنه كسر الأصنام، فمن كسر الأصنام فهو الفتى.

الخليل عليه السلام وجد أصناماً حسية فكسرها، وأنت لك أصنام معنوية فإن كسرتها كنت فتى. ولك أصنام خمسة: النفس، والهوى، والشيطان، والشهوة، والدنيا. فإن كسرتها فأنت الفتى. وافهم ههنا لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على.

وسئل رضى الله عنه فقيل له: يا سيدى لم بدأ صاحب الرسالة بإبراهيم بن أدهم دون غيره وربما كان غيره متقدماً عليه في التاريخ؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: لأن إبراهيم بن أدهم كان من ملوك الدنيا فأصبح وهو كذلك، فجاء وقت الظهر وهو من كبار الأولياء، فبدأ به صاحب الرسالة ليعلم أن فضل الله ليس بعمل.

وقال رضى الله عنه:

عبدٌ هو في الحال بالحال.

وعبدٌ هو في الحال بالمحوّل.

فالذى هو في الحال بالحال هو عبد الحال.

والذى هو في الحال بالمحوّل عبد المحوّل.

وأما من هو في الحال بالحال أن يتأسف عليها إذا فقدها ويفرح بها إذا وجدها.

والذى هو في الحال بالمحوّل لا يفرح بها إذا وجدها ولا يحزن عليها إذا فقدها.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من تحقق بالله ملك الأشياء ولم تملكه فيصير الحال تحت قهر تصرفه،

وإنما يكون ذلك للرجل لرسوخه في العلم بالله، والعلم حاكم على الحال وبه يوزن، والحال إنما هو

فرع من فروع العلم، والعلم قارٌّ ثابت، والحال لا بقاء لها؛ لذلك قالوا:

لو لم تحل ما سميت حالا وكل ما حال فقد زال

انظر إلى الظل إذا ما انتهى يأخذ في النقص إذا طالا

والأكابر ملكهم الله أحوالهم وجعلهم حاكمين عليها، ومن هنا لما قيل للجنيّد: ما لنا نرى

الشايع يتحركون في السماع وأنت لا تتحرك؟ فقال رضى الله عنه:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مرّ السحاب﴾ (٢٦).

وقيل لبعضهم: مالك لا تتحرك في السماع؟ فقال: إنه إذا كان في الجمع كبير احتشمت منه

فأمسكت على وجدى، فإذا خلوت وحدى أرسلت على وجدى فتواجدت.

فانظر كيف كان زمام حاله معه يمسكها إذا شاء، ويطلقها إذا شاء اتسع القلب بمعرفة الله غرقت

فيه الواردات، وإنما يبدو أثر الحال على من ضاق عن وسعها، والعارف له وسع المعرفة، فإن ورد الوارد عليه غرق في وسع معرفته، وهل رأيت بحرًا فاض بمطر سحاب؛ ولهذا جهلت أحوال الأكابر أرباب المقامات، واشتهر أهل الأحوال لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن كتْمها ولضيقهم عن وسعها، فربما كان صاحب الحال أحظى بإقبال الخلق من صاحب المقام، وبينه وبينه مثل ما بين السماء والأرض.

وكلما تمكّن الرجل في العلوم الإلهية والمعارف الربانية استغرب في هذا العالم، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به فيصفه.

وقال رضى الله عنه؛ كل سوء أدبٍ يثمر لك أدبًا فهو أدب.

وقال رضى الله عنه: المؤمن لا يرضى عن نفسه بالخير إذا كان فيه، لأن فوق الخير خيرات أترأه يرضى بالشر؟

وقال رضى الله عنه: كان الجنيد قطبًا في العلم وكان سهل بن عبد الله التستري قطبًا في المقام وكان أبو يزيد البسطامي قطبًا في الحال.

وقال رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن اللطف إذا ورد على العبد فإن كان في الدائرة النفسانية تلقته النفس بالبشاشة والفرح، وإن كان في الدائرة المعنوية تلقته الروح بالمحبة والمقة^(٢٧)، فيقع الميل ويكون عن الميل السكون، ويقع مع السكون الأنس بالمسكون إليه، والله لا يحب لك أن تسكن لغيره ولا أن تأنس بشيء دونه؛ فلذلك قال الشيخ رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف أى السكون إليه والإقامة عنده.

وهذا كما تقدم عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه دخل على بعض الرجال فقال له: كيف حالك؟ فقال له الشيخ: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار.

فقال له الرجل: أما شكواى من حرّ التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك أنت من برد الرضا والتسليم فكيف؟ فقال: أخاف أن تشغلنى حلاوتها عن الله. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى نعم العبد برخ لولا أنه يسكن إلى نسيم الأسحار ومن عرفنى لا يسكن لغيرى.

وكان عندنا بالإسكندرية امرأة عارفة بالله أخبرتنى أنها سمعت قائلًا يقول لها: أعوذ بك من النور وفتنته، ومن الغيب وتلفته.

وأخبرتني أيضًا قالت: كنت أمسى بالإسكندرية وإذا بناس في هوهم وطربهم فقلت في نفسى: هؤلاء في فرح ومسرة وحلم الله من ورائهم ونحن في ملاقة النوازل وقهر الأحكام.

قالت: فإذا قاتل يقول لى: ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب.

وأخبرتني أيضًا قالت: إذا كنت في حضرة أو موقف وأرادني زوجي ليقضى إربه مني لا أمنعه ولا يستطيع ذلك كلما أراد مني أمرًا عجز عنه. قالت: حتى يضيق خلقه ويقول: ما هذه إلا حسرة هذه الشابة في حسننها بين يدي ولا تمتنع مني ولا أصل إليها. فأقول له في ذلك الوقت: من هو الرجل فينا ومن هو المرأة!

قالت: وإذا كان وقت ستر أمكنه مني ما يريد.

وقال الواسطي: استحلأ الطاعات سموم قاتلة وصدق رضى الله عنه.

وأقل ما في ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائمًا فيها متطلبًا لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها وتحب دوامها لا قيامًا بالوفاء ولكن لما وجدت فيها من الحلاوة والمتعة، فتكون في الظاهر قائمًا لله وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك، وتخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاءً تعجلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك.

وقال رضى الله عنه: لما قرأت عليه كتاب الحقائق للسلمي فقال فيه انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة، فقال الشيخ رضى الله عنه عن الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه: ولا حيرة عند المحققين فيما فيه الحيرة عند المؤمنين.

وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبد هو بشهود ما من الله إلى الله.

ومعنى كلام الشيخ هذا: إن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المتعذرين بين يدي الله تعالى وتلازمه الأحران وتحالفه الأشجان فيستولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء.

وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله، قال الله سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢٨).

فالأول: حال العبادة والزهاد.

والثاني: حل أهل العناية والوداد.

الأول: شأن أهل التكليف.

والثاني: شأن أهل التعريف.

الأول: حال أهل اليقظة.

والثاني: حال أهل المعرفة.

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: العارف من عرف شذائد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه، وعرف إساءة نفسه في إحسان الله إليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

قال أيضًا: قليل العمل مع شهود المنة من الله خير من كثير العمل مع رؤية التقصير من النفس.
قال بعض أهل المعرفة: لا يخلو شهود التقصير من الشرك في التقدير.
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قرأت ليلة من الليالي: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله: ﴿من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

ف قيل لى: شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك، ينسبك أطفاه الحسنة، ويذكرك أفعالك السيئة، ويقلل عنك ذات اليمين، ويكثر عليك ذات الشمال، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله.

فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجد والاجتهاد.
ولذلك قل أن تجد الزاهد والعايد إلا مكموذاً حزينا لأنه علم أن الله طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشقت السموات والأرض والجبال من حمله.

قال الله سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ (٢٩).

فعاين الزهاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه؛ فلذلك لزمهم الكمد، واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمراً عظيماً وعلموا ضعفهم عن حمله وعن القيام به متى وكلوا إلى نفوسهم، قال الله سبحانه: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ (٣٠) وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله حمل عنهم ما حملهم قال الله سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (٣١) فرجعوا إليه بصدق الرجعى فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين فى محفات المنن تروح عليهم نفحات اللطف.

والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف، تلازمهم المشقات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العناية.

وأما القسم الثالث: وهم الذين مع الله بشهود ما من الله إلى الله: هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون فى ميادين التفريد.

فأما أهل القسم الأول وهم الذين عليهم شهود ما منهم إلى الله فلم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره؛ لأنهم أقبلوا على نفوسهم موثخين لها شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا إليها بالتوبيخ إذا قصرت؛ فلذلك قال العارف الذى سبق قوله: لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير.

فإن قلت: إذ كان توبخ النفس وذمها يستلزم دقيقة الشرك فكيف نصنع والله قد ذم النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك؟
 فالجواب: أن ذمها لازم لأن الله أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف لها فعلاً تراها هي الفاعلة له.

وأما القسم الثاني هو الذي يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيراً من القسم الأول لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق، فلو لا إثباته لنفسه ما شهد ذلك؛ فلأجل هذين المعنيين أثر أهل الله القسم الثالث وهو أن يكونوا بشهود ما من الله إلى الله فاقهم. وقال رضى الله عنه: العارف إذا خوَّف خاف، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ (٣٢).

يريد الشيخ رضى الله عنه: أن العارف لا يقطعه فضل الله عن شهود عدله، ولا يحجبه شهود لطفه عن خوف ما بطن في مشيئته.

ويجب أن تعلم أن أهل المعرفة في نهاياتهم ربما التبس حالهم بأهل البدايات في بداياتهم. فإن المريد في مبدأ إرادته تؤثر فيه المخاوف لعدم استيلاء سلطان الحقيقة عليه، فإذا تحقق فناؤه لم تؤثر فيه الواردات ولم يدخل تحت حكم العادات، فإذا ردَّ إلى حالة البقاء أثرت الأشياء فيه كحالة في بدايته.

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ (٣٣).

فتجد المريد يخوَّف فيخاف والعارف يخوَّف فيخاف وليسوا وإن استويا في الظاهر بسواء. فخوف المريد لأجل ججسته، وخوف العارف لكمال معرفته. ومن هنا لا تفضل عبداً وانقأ بلطفه ومثته على خائف من غيب مشيئته. وكذلك لا تفضل عبداً وقف مع ظاهر الوعد على عبده ردَّ إلى وجود الأزلية فاقتطع عن الوقوف مع الوعد الجميل والتعيم وردَّ إلى ما سبق في القدم.

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر - وقد رفع يديه إلى السماء:

اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد، وما زال يناشد ربه حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال أبو بكر رضى الله عنه: يكفيك بعض مناشدته لرَبِّكَ يا رسول الله فإنه منجز لك ما وعدك (٣٤). فالرسول ﷺ لكمال علمه بالله كان بشهود المشيئة، وأبو بكر رضى الله عنه كان بشهود الوعد الجميل.

ورسول الله ﷺ علم ما علمه أبو بكر من الوعد الجميل.

كيف، والوعد إنما وصل أبي بكر على يد رسول الله ﷺ.

(٣٤) سيرة ابن هشام، والسيرة النبوية لابن كثير.

(٣٢) الشعراء: ٢١.

(٣٣) طه: ٥٥.

غير أنه سلك الله به المسلك الأتم من الرجوع إلى مشيئته التي لا تتوقف على شيء ويتوقف عليها كل شيء.

وقال رضى الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه، فإذا هو عند ربه.

وقال رضى الله عنه عن شيخه: خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله. وقال رضى الله عنه عن شيخه: من لم يتغلغل في هذه العلوم مات مصراً على الكبائر وهو لا يعلم.

وسمعه يقول عن شيخه أبي الحسن رضى الله عنه: كل شيء هناك الله عنه فهو شجرة آدم إلا أنه لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النهى تنزل لماذا، إنما تنزل إلى أرض القطيعة.

وقال رضى الله عنه: كان ببلاد المغرب ولّى من الأولياء يتكلم على الناس وكان بادئاً، فجلس يوماً يتكلم على الناس فقال رجل مكشوف الرأس كبيرة: هذا رجل يزهّدنا في الدنيا وهو كالدب؛ فكشف به الشيخ فقال من فوق المنبر: يا أبا رويس ما سمعتي إلا حبه. ثم أنشد:

وقائل لست بالمحب ولو كنت محبا لذيت مذ زمن
أجبتة والفؤاد في حرق لم تذق الحب كيف تعرفني
أحب قلبي وما درى بدنى ولو درى ما أقام في السمن

وقال رضى الله عنه: عزم إنسان على الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه فأقى إليه وأصحابه معه فلما أكلنا وعزمنا على الخروج ولم نشرب، فقال الشيخ: يا بخلاء من بخل الصوفي أن يأكل ولا يشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من سقى مؤمناً شربة ماء مع وجود الماء كان كمن أعتق سبعين من ولد إسماعيل.

ثم قال الشيخ: إذا أكلتم طعام إنسان فاشربوا عنده حتى ينال هذا الأجر العظيم. وقال رضى الله عنه: دخلت يوماً على الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه فقال لى: إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله. فقلت في نفسي: كان النبي ﷺ يقبل الهدية، وقال: ما أتاك من غير مسألة فخذ. فقال الشيخ: كأنك تقول كان النبي ﷺ يقبل الهدية (٣٥)، وقال ما أتاك من غير مسألة (٣٦). فخذ، النبي ﷺ قال الله في حقه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ (٣٧).

متى أوحى الله إليك؟ إن كنت مقتدياً به في الأخذ فكن مقتدياً به كيف يأخذ، كان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ليثيب من يعطيه ويعوّضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدّست هكذا فاقبل وإلا فلا.

وقال لبعض أصحابه: لم تنقطع عني؟ قال: يا سيدي استغثيت بك.
فقال الشيخ رضى الله عنه: ما استغنى أحد بأحد، ما استغنى أبو بكر برسول الله ﷺ ولم ينقطع عنه يوماً واحداً.

وقال رضى الله عنه: إن الله لما خلق الأرض اضطربت فأرساها بالجلال فقال عز وجل: ﴿والجبال أرساها﴾ (٣٨) كذلك لما خلق الله النفس اضطربت فأرساها بجلال العقل، فأتى عبد توفى عقله واتسع نوره نزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب، ووثقت بولي الأسباب فكانت مطمئنة أى ساكنة لأقداره، ممدودة بتأييده وأنواره، حائدة عن التدبير والمنازعة للمقادير، اطمأنت لمولاها لعلها أنه يراها.

أو لم يكف يربك أنه على كل شيء شهيد.

فاستحقت أن يقال لها:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٩).

وقال رضى الله عنه عن شيخه: الوقت ليل، والشأن في الليل الخمود والسكون حتى تطلع شمس المعرفة أو قمر التوحيد أو نجوم العلم فيستضاء بها.

وقال رضى الله عنه: يقول الله عز وجل:

ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلى، فلا تشتغل بما هو لك عن أنت له.

وقال رضى الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة.

وسمعه يقول: حقيقة النية عدم غير المنوى.

وسمعه يقول: قال عيسى عليه السلام: يا بنى إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء فمن ينزل به، ولا في الأرض فمن يصعد به، تأدبوا بأداب الروحانيين، وتخلّقوا بأخلاق النبيين أنبع لكم العلم من قلوبكم ما يغمركم ويغطيكم.

وقال رضى الله عنه: نحن إذا أتانا مريد له شيء من الدنيا لا نقول له أخرج عن دنياك وتعال ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: غدا تهبّ ريح شديدة لا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم فارموا بها الآن. فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبت العواصف كان الكيس من يرمى متاعه بنفسه، كذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه.

وكان يحكى عن الشيخ عبد الرزاق - الولي الكبير رضى الله عنه - أن رجلاً من أهل المهديّة أتاه فقال له الشيخ: أرى عليك أثر نعمة فمن أين أنت وما قصتك؟ قال: يا سيدي كنت من أكابر المهديّة وأعيانها وأكثر أهلها مالاً وعزاً، فورد علينا رجل يدعى أنه من الدالّين على الله فجئت إليه

وأنا متطلع محترق على الوصول إلى الله فقال لى: إنك لا تصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله، وحتى تطلق نساءك بتاتا، وحتى تغير زيّك. ففعلت ذلك فما ازداد قلبي إلا قسوة، فضاقت صدري وحرّت في أمري ولم أطق أن أقيم بالمهدية وقد ذهب ما كنت فيه من المال والجاء ولم أتعرض عن ذلك بشيء في باطنى فجئت إلى هنا قاصداً للحج.

فقال الشيخ عبد الرزاق دعوى على غير بصيرة قاتلهم الله، امكث عندنا. فلما جاء أوان الحج أرسله الشيخ مع بعض أهل الإسكندرية فحجّ ثم رجع إلى الشيخ بالإسكندرية فلما جاء أوان السفر إلى المغرب، قال له الشيخ: اذهب إلى بلدتك فإذا وصلت إليها فإن الناس يسمعون بك ويخرجون إليك مسرعين ويعرضون عليك الملابس والمراكب فخذ أفضلها ملبسا وأحسنها مركباً وادخل إلى المهدية فما حمل إليك من الدنيا فاقبله، وسيعيد الله ما كان لك وأكثر منه، وتجد زوجاتك قد طلقهن أزواجهن فتراجعهن، وتنال من العزّ والرفعة والغنى أكثر مما كنت فيه، فإذا تكمل لك ذلك كله فتح الله عينى قلبك.

قال: فسافر من عند الشيخ وأتى ساحل المهدية فسمع الناس أن فلانا أتى من المشرق وليس في البلدة إلا من له عليه يد ومعروف، فخرجوا يهرعون إليه بالملابس السنية والمراكب البهية، فلبس أحسنها ملبسا وركب أفضلها مركباً، ودخل المهدية فأهديت له الهدايا وحملت إليه التحف والأموال، ووجد زوجاته قد طلقن وانقضت عدتهن فراجعهن، فتكمل له جميع ما وعده به الشيخ في ذلك اليوم ثم فتح الله عينى قلبه.

وتكلم يوماً في فضائل أبى بكر رضى الله عنه فقال:

قال رسول الله ﷺ: ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره. ثم قال:

ما هو هذا الشيء الذى وقر في صدره؟

فقال بعض الحاضرين: المراقبة.

فقال الشيخ: هذا كلام هو قشور.

من هو دون الصديق في الرتبة إذا وجد المراقبة يستغفر الله منها كما يستغفر العاصي من المعصية، وذلك أنه إذا أضاف المراقبة لنفسه كأنه يقول أنت الرقيب وأنا الرقيب: **هـ** والله مع الله تعالى الله عما يشركون.

وقال رضى الله عنه يوصى بعض أصحابه لما عزم على الحج:

إذا وصلت إلى البيت فلا يكونن ههنا البيت وليكن ههنا رب البيت، ولا تكن ممن يعبد الأصنام والأوثان.

وقال: من عرف الله لم يسكن إلى الله، لأن في السكون إلى الله ضرب من الأمن ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ومثل هذا ما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قيل لى لا تأمن مكرى في شيء وإن أمنتك؛ فإن علمى لا يحيط به محيط. وهكذا كانوا.

وكان يقول: إن الولي في فئاته لا يَد أن تبقى معه لطيفة علمية عليها يترتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان في البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له.
وكان يقول: «والله ما جلست حتى جعلت الطيران في الهواء والمشى على الماء وطى الأرض تحت سجادتي.

وقال رضى الله عنه وقد قرأت عليه «الرعاية» للمحاسبي: كل ما في هذا الكتاب يغني عنه كلمتان: اعبد الله بشرط العلم ولا ترض عن نفسك بشيء.
ثم لم يأذن في قراءته بعد.

وسئل عن بعض المشايخ الكائنين في وقته فقال: ضيق الله عليه بالورع، ونحن وسع الله علينا بالمعرفة.

وكان يقول في قول بعض أهل الطريق:
العارف وسعته المعرفة، والورع ضيق عليه الورع.
لا تظن أن قولهم: العارف وسعته المعرفة. أنه يأكل حراماً أو ما فيه شبهة، ولكن العارف ذو بصيرة منيرة يكشف له ما غطى عن الورع فيمد يده إلى ذلك الطعام لعلمه بحله وسلامته من الشبهة على ما أشهدته بصيرته، والورع مستور ذلك عنه؛ فلذلك ربما مد العارف يده إلى ما قبض المتورع يده عنه.

وكان رضى الله عنه يقول: من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم.
وكان رضى الله عنه يفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبي عبد الله محمد الترمذى الحكيم، ويقول:
الشكر صفة أهل الجنة والصبر ليس كذلك.
وسمعه يقول: القبض على قسمين: قبض له سبب، وقبض لا سبب له. القبض الذى له سبب يكون للعموم والخصوص، والقبض الذى لا سبب له لا يكون إلا لأهل التخصيص.
وكان رضى الله عنه يقول:

الشكر انفتاح القلب لشهود منة الرب.
يقال: شكر، ومقلوبه كشر، يقال: كشرت الدابة إذا كشفت عن أنيابها.
وقال بعض العارفين: لو علم الشيطان أن طريقاً يوصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها، ألا تراه كيف قال:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٤٠).

ولم يقل ولا تجد أكثرهم صابرين ولا خائفين ولا راجين.

ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور بالإسكندرية لاجين رحمه الله قلت له.
يجب عليكم الشكر لله، فإن الله تعالى قد قرن دولتكم بالرخاء فانشرحت قلوب الرعية بكم،
والرخاء أمر لا تستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء.

فقال: وما هو الشكر؟

قلت: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان، فشكر اللسان
التحدث بنعم الله، قال الله سبحانه:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٤١).

وشكر الأركان بالعمل بطاعة الله قال الله سبحانه:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.

وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله قال الله سبحانه:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (٤٢).

ومن القسم الأول قال رسول الله ﷺ.

«التحدث بنعم الله شكر».

ومن الثاني، أنه قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتتكلف ذلك وقد غفر الله لك
ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال:

«أفلا أكون عبداً شكوراً» (٤٣).

ومن الثالث، كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من
خلقك فمنك وحدك لا شريك لك» وهذه الأحاديث لم أستحضرها وقت مخاطبتي له.

فقال: وما الذى يصير به الشاكر شاكراً؟

قلت له: إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد، وإذا كان
ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد عنهم.

وقال رضى الله عنه: إن لله ملكاً يلاُ ثلث الكون، وإن لله ملكاً يلاُ ثلثى الكون، وإن لله ملكاً يلاُ
الكون كله، وإن لله ملكاً لو وضع قدمه فى الأرض لم يجد أين يضع الثانية.

ثم قال: يقول القائل: إذا كان ملك يلاُ الكون كله فأين يكون الذى يلاُ ثلث الكون، والذى
يلاُ ثلثى الكون فقال رضى الله عنه جواباً عن ذلك: اللطائف لا تتزاحم، كمثل سراج أدخلته بيتاً
فملأ البيت نوره ولو أتيت بعد ذلك بألف سراج لوسع ذلك البيت أنوارها.

وسمعه يقول: قال رسول الله ﷺ لأبى بكر: يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر؟ قال: وما هو
يا رسول الله؟ قال: هو ذاك.

(٤٣) متفق عليه.

(٤١) الضحى: ١١.

(٤٢) النحل: ٥٣.

وسمعه يقول:

قال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر أتعلم يوم يوم؟

قال: نعم يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير، ولقد سمعتك حينئذ وأنت تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقال رضى الله عنه:

أبو بكر وعمر خلفاء الرسول وعثمان وعلى خلفاء النبوة.

وقال رضى الله عنه: العامة إذا رأوا إنساناً ينسب إلى طريق الله جاء من البرارى والقفار أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم وكم من ولي لله وبدل بين أظهرهم فلا يلتقون إليه بالاً وهو الذى يحمل أثقالهم ويدافع الأغيار عنهم فمثلهم فى ذلك كمثل حمار الوحش يدخل به البلدة فتطوف الناس به متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورته والحرر التى بين أظهرهم وهى التى تحمل أثقالهم لا يلتفتون إليها.

وقال: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

يا أبا العباس، إذا قال أحد فيك ما ليس فيك فقل:

الله يعلم منى ما يعلم وإلى الله عاقبة الأمور.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

علم الله ما يقال فى أوليائه والصديقين فبدأ بنفسه، ففضى على قوم أعرض عنهم فنسبوا إليه الزوجة والولد.

فإن قيل فى صديق إنه زنديق، أو قيل فى ولي إنه غافل عن الله غوى، فإن ضاق الولي أو الصديق بذلك ذرعاً قيل له: الذى قيل فيك هو وصفك لولا فضلى عليك، وقد قيل فى ما لا يستحقه جلالى.

وقال رضى الله عنه: الهالك بهذه الطائفة أكثر من الناجى.

واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ليرفع بالصبر على أذاهم مقدارهم، ولتكمل بذلك أنوارهم، وليتحقق الميراث فيهم، ليؤدوا كما أؤذى من قبلهم فيصبروا كما صبروا، ولو كان من أتى بهدى إطباق الخلق على تصديقه هو الكمال فى حقه، لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ، وقد صدقه قومٌ هداهم الله بفضل، وحرم من ذلك آخرون حجبتهم الحق عن ذلك، فانقسم العباد فى هذه الطائفة إلى معتقد ومعتقد، ومصدق ومكذب، وإنما يصدق بعلمهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم، والمعترف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل، لغلبة الجهل، واستيلاء الغفلة على العباد، وكرهية الخلق أن يكون لأحد عليهم شقوق فى منزلة، أو اختصاص بمنة، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٤٤)؟ ومن أين للعباد أن يعلموا أسرار الحق فى أوليائه،

وشروق نوره في قلوب أحيائه؟ وسبب هلاك الهالك بهم أن من أظهره الله منهم لا يد وأن يظهره ببواهر المنن، وخوارق العادات، فتستغرب عقول العموم أن يعطى ذلك غير الأنبياء، وأن تظهر الخوارق إلا في أهل العصمة، وهؤلاء لم يعلموا أن كل كرامة لولى هي معجزة لذلك النبى الذى هذا الولى تابع له، فظن هؤلاء أن جريان الكرامة على الولى مساهمة لمقام النبوة، وحاشا لله أن يشترك النبى والولى في مقام، كيف وقد قال أبو يزيد: جميع ما أخذ الأولياء مما هو للأنبياء كزق ملء عسلًا فرشحت منه رشاحة، فما انطوى عليه الزق فهو مثل علوم الأنبياء، وتلك الرشاحة هي حظ الأولياء منهم.

واعلم رحمك الله أن من اعتزّ بعزیز لم يشاركه في العز، فأولياء الله اعتزّوا بالأنبياء الذين اهتدوا بهداهم واقتفوا سبيلهم فلا يشاركونهم في عزهم؛ لأن بهم اعتزازهم، ألم تسمع قول المولى تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾^(٤٥)؟ فلم يكن إثبات العزة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من عباده يوجب شركة الله في عزه.

وحكمة الله اقتضت عدم اتفاق العباد على الولى بل انقسم الأمر فيه كما بيناه لما بيناه. ولأمر آخر وهو أنه لو كان الخلق كلهم مصدّقين للولى فاته الصبر على تكذيب المكذّبين له، ولو كان الخلق كلهم مكذّبين له فاته الشكر على تصديق المصدّقين له، فأراد الله سبحانه بحسن اختياره لأوليائه أن يجعل العباد فيهم على قسمين مصدّق ومكذّب؛ ليعبدوا الله فيمن صدّقهم بالشكر وفيمن كذبهم بالصبر، والإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر.

واعلم أنه لعزاة قدر الولى عند الله لم يجعله إلّا محجوبًا عن خلقه وإن ظهر بينهم؛ لأنه ظهر لهم من حيث ظاهر علمه، ووجود دلالتة، وبطن بسرّ ولايته.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

لكل ولى حجابٌ وحجابى الأسباب.

فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة، والنفوس لا تحتل صحة من هذا وصفه، وسبب ظهور ذلك الولى بذلك تجلّى الحق عليه بصفة ظهر بها، فإذا غلبت عليه شهودًا غلبت عليه ظهورًا، فلا يصحبه ولا يثبت معه إلّا من بحق الله نفسه وهواه.

ومن هذا الصنف كان شيخنا أبو العباس رضى الله عنه لا تجلس بين يديه إلّا والرعب قد ملك قلبك.

ومن خلّصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز، وأى ملك أعظم من هذا الملك؟ هذا ملك أعوز الملوك وجوده.

أفلا ترى أنه لم يزل في كل قطر وعصر أولياء تذلّ لهم ملوك الزمان ويعاملونهم بالطاعة والإذعان؟ ومنهم من يكون حجابه كثرة التردد إلى الملوك والأمراء في حوائج عباد الله فيقول القصير الإدراك: لو كان هذا وليًا ما تردّد إلى أبناء الدنيا.

وهذا جورٌ من قائله، بل انظر تردده إليهم: إن كان لأجل عباد الله وكشف الضر عنهم، وتوصيل ما لا يستطيعون توصيله إليهم، مع الزهد واليأس مما في أيديهم، والتعزُّز بعزِّ الإيمان وقت مجالستهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فلا حرج على من هذا شأنه لأنه من المحسنين، وقد قال الله سبحانه: ﴿وما على المحسنين من سبيل﴾ (٤٦).

وهكذا كان سبيل شيخ شيخنا القطب الكبير أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري رضي الله عنه يقول: جهل الناس وولاة الأمور بقدر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عن حسن كثرة ترداده إليهم في الشفاعات.

ويجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا عبدٌ متخلِّق بخلق الله، قد بذل نفسه وأذناها في مرضاة الله، وعلم وسع رحمة الله، فعامل بالرحمة عباد الله ممثلاً لقول رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (٤٧).

ولقد بلغني عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه أنه استدعى يهودياً كحالاً ليداوى بعض من عنده، فقال له اليهودي: لا أستطيع أن أعالجه إلا بإذن، فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يداوى أحد من الأطباء إلا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودي من عنده قال الشيخ لخدمته: هيثوا آلة السفر. وسافر لوقته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذناً وعاد ولم يبت بها ليلة واحدة ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودي فاعتذر له بما اعتذر به أولاً فأخرج له الشيخ مكتوباً بالإذن فأكثر اليهودي التعجب من هذا الخلق الكريم.

وقد يكون حجاب الولي كثرة الغنى وانبساط الدنيا عليه.

وقال بعض المشايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجِدِّ والاجتهاد، وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتقوّت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ:

إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخى فلان فأقره منى السلام وتطلب الدعاء منه لى فإنه ولى من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبتة فقل لى: هو عند السلطان. فازداد تعجبي، فبعد ساعة، وإذا هو أنى فى أفخر ملبس ومركب، وكأنما هو ملك فى موكبه، قال: فازداد تعجبي أكثر من الأول قال: فهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنى مخالفة الشيخ، فاستأذنت فأذن لى، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والشارة الحسنة.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جئت من عنده؟

(٤٦) التوبة: ٩١.

(٤٧) أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وأبو داود.

قلت: نعم.

قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجب من الأول.

فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان؟ قلت: نعم. قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء. قال: لا بد أن تقول لي. فأعدت عليه ما قال، فبكي طويلاً، وقال: صدق أخي فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي وعندى إليها بقايا التطلع.

ومن حجب أولياء الله قلوبهم من الخلق، فإذا قبل الرجل ما يعطى صغر عند الخلق، وهم لا يكبر عندهم إلا من لا يقبل دنياهم، ومن إذا أعطوه ردّ عليهم وأبى من القبول منهم. ولعل فاعل ذلك إنما فعله زواًفاً وزندقة، واستيلاًفاً لقلوب العباد عليه، وليتوجه بالتعظيم إليه، ولتنطلق الألسنة بالثناء عليه.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من طلب الحمد من الناس بترك الأخذ منهم فإنما يعبد نفسه وهواه وليس من الله في شيء.

وما قد يصدّ عقول العموم عن أولياء الله وقوع زلة من تزياً بزيمهم أو انتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع هذا حرمان من وقف معه، وقد قال الله سبحانه: ﴿ولا تزر وازرةٌ وزراً أخرى﴾ (٤٨). فمن أين يلزم لما أساء واحد من الجنس، أو ظهر عدم صدقه في طريقه، أن يكون بقية أهل الطريق كذلك.

وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفي لنفسه رحمه الله تعالى:

استتار الرجال في كل أرض تحت سوء الظنون قدرٌ جليل
ما يضير الهلال في حندس الليل سواد السحاب وهو جميل

وأشدّ حجاب يحجبه عن معرفة أولياء الله شهود المائلة، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، قال الله سبحانه حاكياً عنهم:

﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ (٤٩).

وقال سبحانه حاكياً عنهم:

﴿أبشرا منا واحداً نتبعه﴾ (٥٠).

وقال سبحانه: ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق﴾ (٥١).

وإذا أراد الله أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته.
وصية وإرشاد:

إياك أيها الأخ أن تصغى إلى الواقعين في هذه الطائفة والمستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله؛ فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق، وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلماً بين يديه، تركوا الانتصار لنفوسهم حياء من ربوبيته، واكتفاء بقيوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصاً أهل العلم الظاهر، فقل أن تعبد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولى معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عارياً عن وجود التصديق. فاحذر من هذا وصفه، وفر منه فراك من الأسد، جعلنا الله وإياك من المصدقين لأوليائه بمنه.